

فكرة المؤتمر ومحاوره

د. فيصل الحفيان(*)

□ د. أحمد يوسف أحمد محمد (رئيس الجلسة):

أرحب بحضراتكم جميعاً في مستهل هذه الجلسة الافتتاحية لمؤتمر « مستقبل التراث » ، الذي ينظمه معهد المخطوطات العربية ، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

نحن في معهد المخطوطات العربية سعداء برعاية معالي المدير العام لهذا المؤتمر ، وسعداء أيضاً بكلمته الافتتاحية التي سيمهد بها لبحوث المؤتمر ومناقشاته .

تعلمون أن التراث أصبح قضية حية تشغل كثيراً من الناس سواء كانوا من النخبة أو غيرهم .

وبحسب الجدول فإن هذه الجلسة مخصصة للكلمة الافتتاحية التي سيلقيها معالي الأستاذ الدكتور محمد العزيز ابن عاشور المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ؛ راعي المؤتمر ، ونستبقها - بحسب الجدول أيضاً - بكلمة الدكتور فيصل الحفيان منسق برامج المعهد التي ستمهد للمؤتمر بحديث مركّز عن فكرته ومحاوره .

*

(*) منسق برامج المعهد.

الفكرة:

مضى ما يزيد على قرن من العمل الجاد في التراث الفكري العربي (المخطوطات)، ولا يزال هذا التراث حتى اليوم دون «دستور» يكون بمثابة أساس نظري له من ناحية، ومخطط عمل مستوعب لشتى أنواع الحراك التراثي ومستوياته من ناحية أخرى.

ولا يعني ذلك التقليل من الجهود الماضية التي بذلتها منظمات ومؤسسات ومراكز وأفراد، ولكن الوقت بلا شك أزف لنظم تلك الجهود المبعثرة في عقد واحد، ولتحقيق نقلة نوعية يتم فيها تحديد المفاهيم وضبطها، وطرائق العمل وأنهاطها.

وهذه مناسبة للقول بأنه ما عاد يجوز أن يتم التفكير في التراث، والتعامل معه من خلال الخطط الثقافية (العامة)؛ لأن له خصوصيته وطبيعته ولغته المتفردة.

وضعت المنظمة في أواخر العقد التاسع من القرن الماضي «الخطة الشاملة للثقافة العربية»، فأفردت للتراث صفحات فيها، ضمنتها «قراءة جديدة للتراث»، وأثار جهازها المتخصص «معهد المخطوطات العربية» غير مرة في اجتماعات «الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي»، وفي ندواته المتخصصة مسألة وضع خطة شاملة خاصة بالتراث، والمثقفون اليوم بمختلف اتجاهاتهم وتياراتهم يُقرّون بأن التراث هو السؤال الصّعب في الثقافة، بل في الحياة الحضارية والتنمية على مختلف الأصعدة؛ السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها، ويقولون: إن التراث ليس جزءاً ساكناً من الماضي، بل هو دينامية في صياغة الحاضر، وبناء المستقبل.

لذلك كله كان هذا التوجه نحو خطة شاملة (إستراتيجية) خاصة بالتراث، تكشف عن طبيعة علاقتنا به، وتستكشف خريطته وتضاريسه، وتحديد ميادين عمله، وترسم سلم أولوياته، وتُقنن الجدل القائم بينه وبين الثقافة، وبينه وبين الحداثة، والعمولة والإعلام والتربية والتعليم وثورة الاتصالات، وقضايا العصر جملة.

وهذا المؤتمر خطوة على الطريق، يتم فيه التركيز على التأسيس النظري: المفاهيم، والحدود، والجدل، وبعض أوجه العلاقات، والتشابكات، وتحديدًا مع الثقافة، ومع الحداثة أيضًا.

وإذا كانت جهود الأجيال السابقة قد انصرفت إلى إعادة اكتشاف التراث، ووضع آليات تحقيقه، فمن المنطقي أن تتوجه الجهود اليوم إلى المرحلة التالية: مرحلة البناء النظري؛ وذلك لأن التفكير في التراث، وسبر أغواره، واستلهام دروسه لا يأتي إلا من خلال فروض، ومفاهيم، وأنساق نظرية؛ لأن استيعاب التراث في عملية التوليد المعرفي يتطلب تأسيسًا نظريًا لمقوماته، ومقولاته، وتمثلاته، إضافة إلى النظرية الكلية التي كانت سمة ملازمة للتراث (الشافعي، الخوارزمي، الشاطبي، ابن خلدون). على أن أي حراك عملي في حقول التراث المختلفة لا بد أن يستند إلى رؤية (نظرية) يقوم عليها، وينهض بها.

وإذن فإن التأسيس من الضرورة بمكان؛ للانطلاق على بصيرة في العمل التراثي، ولبناء أسس أو قوائم مشتركة يلتقي عليها العاملون في حقل التراث بمختلف توجهاتهم ومنطلقاتهم، وإنّ البدء بالتأسيس لازم، إذ إن أية خطة لا بد أن تستند إلى رؤية تقوم عليها، وتنهض بها خطوات العمل، وبرامجه وأهدافه.

ومن نافلة القول أن التأسيس لا يمر عبر رصد الإنجازات والإخفاقات، ولكنه عملية أصيلة تنغيًا وضع الأسس، وضبط المفاهيم، وصياغة الأهداف والمقاصد؛ لتكون أكثر ملاءمة ومواكبة لاحتياجات عصرنا وتحدياته، ولتستوعب المعارف والأخطار والرؤى الجديدة، من خلال نوع جديد من التفكير في التراث، يقوم على العلمية والموضوعية، والنظر الكلي، والإفادة والاعتبار، والمساءلة، والحفر الواعي، بعيدًا عن الذاتية، والانتقائية، والترداد، والعبث، والاستنتاج، والتجزئ، والسطحية، وبذلك يمكن أن نخرج بالتراث من الإسقاطات والمحاکمات والأحكام المسبقة والجاهزة.

ولن يكون التأسيس إلا من خلال إثارة أسئلة، بعضها مما يُظن أنه قريب، لكن أقرب الأشياء إلينا قد تكون أخفاها عنا، وبعضها مما لا تملك إلا أن تعترف بأنه إشكالية كبيرة وعميقة، على أن النوعين هما من الأسئلة المراوغة التي تختلف الإجابة عليها، تبعًا للأفكار والتوجهات للمسؤول عنها أو المتصدي لها، ومن هذه الأسئلة: ما هو مفهوم التراث؟ وما هي حدوده؟ وهل التراث هو المخطوط (الوعاء) أم هو المحتوى (النص) أم شيء آخر؟ وهل التراث جزء من الثقافة، أم إنها جزء منه؟ أم إن كلاً منهما رأس بنفسه؟ وهل قرأنا - حقًا - تراثنا؟ وكيف قرأناه؟... إلخ.

أسئلة تتطلب الإجابة عليها الكثير من الشروط الضرورية حتى لا نقع أسرى استقطاب من أي نوع، وحتى لا نُضحي بالدقة العلمية، وحتى يكون العمل التراثي عملاً يبدأ بالتراث، وينتهي به.

تلك هي الأفكار الرئيسة التي يودُّ المؤتمر مناقشتها من أصحاب التوجهات والرؤى المختلفة، وصولاً إلى صيغ أصيلة، لا توفيقية ولا تليفية، ومساحات مشتركة تقف عليها الأطراف جميعًا.

المحاورة

لم يتحرّر حتى اليوم مفهوم جامع مانع للتراث يحظى بالإجماع أو شبه الإجماع عليه، وما زلنا حتى على صعيد المصطلح لم نخلّص مصطلح التراث الفكري من المصطلحات الأخرى التي تشترك معه في كونها تراثًا، لكن مفاهيمها مغايرة له، من مثل: الوثائق والآثار والموسيقى...

أما على صعيد الحدود المفهومية المرتبطة بالتاريخ والجغرافيا واللغة، فما زلنا - أيضًا - مختلفين في المسائل البديهية من مثل: أين يبدأ التراث وأين ينتهي تاريخيًا؟ وما هي الحدود الجغرافية التي يتحرك عليها؟ هل التراث العربي هو المكتوب بالعربية فقط، أم إنه يشمل المكتوب بالحرف العربي، أم إنه يتجاوز هذين ليستقطب ما فقدته لغتنا واحتفظت به اللغات الأخرى عبر الترجمة؟ إلى أن نصل إلى الإشكاليات المركبة من مثل: إشكالية الحاجة إلى نظرية جديدة لمفهوم التراث تتجسّد فيها أبعاد التاريخ والجغرافيا واللغة والفكر جميعًا؟

ولا يتوقف الأمر عند المفاهيم وما يتصل بها، فهناك التشابكات التي تثير أسئلة عن طبيعة العلاقة بين التراث والثقافة، وعن جذور الأزمة التي يعيش فيها التراث والثقافة على السواء، وعن أسباب الانقسام النخبوي اليوم بين أهل التراث وأهل الثقافة.

وعلى صعيد التشابكات لا بد من أن ننظر إلى طبيعة العلاقة - أيضًا - بين التراث والحداثة، التراث يُمثّل الخصوصية، والحداثة التي يحمل لواءها الآخر، وهنا نجد أنفسنا في حالة مواجهة لا مفر منها مع أسئلة من نوع: هل الحداثة مفهوم كوني (عالمي) صالح للتطبيق داخل أي إطار فكري؟

وهل يمكن استيراد نسق فكري فلسفي من بيئة ما و«تنزيله» على نسق آخر؟ أهم من هذا وذاك: لماذا لم تتولد لدينا «حدائث» خاصة تنتمي إلى تراثنا وتستند إلى مرجعيته؟

إن الأسئلة السابقة جميعاً تفرض علينا أن نراجع رؤيتنا لتراثنا، ونستكشف تضاريسه، ثم نوازن بين هذه الرؤية ورؤية الآخر لتراثه، وقد يكون علينا أن نعمق المراجعة بالبحث في الرؤية التراثية في اتجاهات أخرى، أعني أن نستجلي أبعاد رؤيتنا المركبة التي تصل بنا إلى غايات الإفادة والاعتبار والتوظيف.

ومن الضروري أن نعترف بأن منا من يؤمن بأن وظيفة التراث انتهت، فقد عرّته عوامل الزمن حتى إنها لم تُبق منه شيئاً، وفي مقابل هذا الفريق فريق آخر يحمل قناعة معاكسة تماماً.

لدينا اليوم إذن العديد من المواقف تجاه التراث؛ مواقف معه، وأخرى ضده، فما دعومات هذه المواقف؟ وما هي أنواع القراءة التي اعتمدها كل فريق، وما المناهج التي طبّقها؟ ومن الضروري في هذا السياق ملاحظة الحمولات الثقافية والفكرية التي وجّهت هذه القراءات وأثّرت فيها.

إن هذه المواقف تعني أن التراث اليوم أصبح محل مساءلة، ولكن أي مساءلة هذه؟ وأياً كانت فإن المساءلة في حد ذاتها ظاهرة صحية، فليس التراث مُنزلاً ولا مقدساً، لكن الأمر أبعد من ذلك، فالمساءلة لا ينبغي أن تصادر صلاحية التراث، ولا يصح أن تقوم على إسقاط الحاضر عليه، فهي بذلك تكون قد سلّبت سياقه التاريخي وظرفيته الزمنية. والمساءلة سترجع بنا بالضرورة إلى القراءة أو القراءات التي اعتمدها ونعتمدها للتراث.

وثمة قضايا أخرى مهمة تدخل في باب النقد الإيجابي، وتتركز حول إشكالية كون التراث كله كتلة فكرية ومعرفية على مستوى واحد، لا تفاوت فيها، أم إن فيه الأصيل الثابت، وفيه الدخيل المتحول، ثم إن الحديث عن التراث مرتبط بالضرورة ارتباطاً وثيقاً بالذاكرة، فهل هناك فرق بين التراث والذاكرة؟

أما إذا جئنا إلى العمل في التراث لنرصّد اتجاهاته وغاياته، فإن كثيراً من الباحثين يقررون أن التراث لا يزال أسيراً للانتقائية والتوجهات الإقليمية والفكرية، بل حتى التوجهات المرتبطة بموضوعات تراثية، أو أعلام، أو مناطق جغرافية، أو تاريخية محدّدة؟ مما يعني أن نظرنا إلى التراث ليست سليمة، وأن الإفادة من التراث لم تتحقق على النحو المطلوب، وقد نُجاوز ذلك إلى تقرير أن العمل التراثي اليوم ما زال يدور في فلك النصّ تصحيحاً وضبطاً وتعليقاً وتخريجاً.

إن ثمّ أمراً خطيراً يعاني منه التراث، هو عدم النظر إليه نظرة كلية، بعيداً عن التصنيف أيّاً كان مرتكزه؛ لأن التصنيف في جوهره مصادرة لا تنفق والمنهج العلمي.

وأخيراً فإن التراث قضية كبيرة، وأية قضية أيّاً كان الموقف منها تعني المسؤولية تجاهها.

كانت هذه إلماحات للجو العام الذي يحيط بهذا المؤتمر الذي نأمل أن تكون له ثمار تعود بالخير على هذا التراث وعلى أصحابه.

* * *